مصيبة الهزيمة ودلالتها في القران الكريم

دراسة موضوعية

إعداد

أ.م.د مهند محمد صالح عطية

جامعة بغداد

كلية العلوم الاسلامية

مصيبة الهزيمة ودلالتها في القران الكريم

دراسة موضوعية

ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

تعد مصيبة الهزيمة والابتلاء بها من المصائب التي أشار إليها القرآن الكريم وتحدث عنها بإسهاب ونحن نناقش الآيات المتعلقة بموضوع بحثنا وهي كيف يكون الهزيمة بلاءً، ولكن قبل ذلك يجب أن نعرفها حتى تتضح ماهيته ، عما سنرى في ثنايا البحث.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا مباركا.

أما بعد :
فأن القران الكريم معجزة الله الخالدة على مر العصور وكر الأيام والدهور وهو كتاب انزله الله ليكون منهج هداية للبشر فبنى الانسان اعتقادا وسلوكا وأخلاقا وجعل من بين وسائل التربية والتهذيب لهذا الانسان ابتلاؤه بالمصائب المختلفة ولأننا في زمن كثرة فيه المصائب حتى بات الناس في حيرة من أمرهم مما يصيبهم بسبب غياب عنهم المعاني والدلالات الاعتقادية والتربوية للمصائب لذا أحببت أن يكون عنوان بحثي (مصيبة الهزيمة ودلالتها في القران الكريم) وكانت خطة البحث مقسمة على أربعة مباحث وخاتمه غير هذه المقدمة وهي :
المبحث الاول / مفهوم الهزيمة
المبحث الثاني / ابتلاء المؤمنين بمصيبة الهزيمة
المبحث الثالث / اسباب الهزيمة
المبحث الرابع / الحكم والغايات من ابتلاء المؤمنين بمصيبة الهزيمة
وأما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج التي توصلت اليها في بحثي هذا
أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة المتواضعة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

الباحث

تعد مصيبة الهزيمة والابتلاء بها من المصائب التي أشار إليها القرآن الكريم وتحدث عنها بإسهاب ونحن نناقش الآيات المتعلقة بموضوع بحثنا وهي كيف يكون الهزيمة بلاءً، ولكن قبل ذلك يجب أن نعرفها حتى تتضح ماهيته ، ويتضمن هذا البحث اربعة مباحث وهي:

المبحث الأول

مفهوم الهزيمة

المطلب الاول

الهزيمة في المنظور الاسلامي

ان الهزيمة في الفكر الإسلامي ليست الهزيمة المادية،التي تحدث داخل الميدان فهذه الهزيمة تعود إلى أسباب قصر في أدائها المسلمون فتخلف النصر عنهم، اما الهزيمة الحقيقة فهي تراجع الفئة المسلمة في مبادئها وثوابتها ، فهذا التراجع ينقلها من وجودها الحقيقي إلى وجودها الشكلي، وهذا هو جوهر الهزيمة ، فالعدو يريد ان يضع حدا لأفكار هذه الفئة ويمنعها من الانتشار فأن تحقق له ذلك كانت الفئة المسلمة قد هزمت شر هزيمة، وعلى هذا الأساس يتبين ان الهزيمة والاستسلام هي حالات عقلية تنشأ في عقل الإنسان تحت ظروف معينة، فتولد لديه الدوافع النفسية التي تدفعه إلى السلوك الذي يعبر عن تلك الحالات.

وعلى هذا فالجيش أو الجماعة المسلمة لا تتطرق إليها الهزيمة؛ لان المسلم صاحب الإيمان يعلم علم اليقين بان النصر من عند الله هو ومن معه[١] لقوله تعالى﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾** ﴾ [٢]

المطلب الثاني
الهزيمة في اللغة

الهزيمة من أصل الهزم،أي: غمر الشيء اليابس حتى يتحطم[٣]وهو الانكسار أو التشقق ، نقول: انهزم العدو، اي انكسرت شوكته وشق صفة ،وانتصر عليه فهو منهزم ومهزوم، ومنه الهزيمة في القتال إنما هو الكسر والغل[٤] والاسم الهزيمة، أو انكسار القوم[٥] وانهزم الجيش: اي تصدع جمعه وتفرق وهرب[٦].

ووردت لفظة هزم ومشتقاتها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي[٧]:

أولاً: في قوله تعالى﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [٨] ففي هذا الموضع جاءت لفظة فهزموهم مبينة ان القوة المادية والإمكانات العسكرية والعددية لا تكفي وحدها للنصر ، وجود هذه الإمكانات لا يمنع وقوع الهزيمة حتى وان كانت المواجهة مع طرف قليل العدد والعدة، ولكنه طرف مؤمن بان الله تعالى ناصره وان قل العدد[٩].

ثانياً: قال تعالى ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [١٠] كفار قريش الذين كذبوا الرسل كانت عاقبتهم الهزيمة والخسران، فهذا يؤكد صراع الباطل مع الحق ينتهي بهزيمة الباطل[١١] .

ثالثاً: قال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [١٢] أشار هنا إلى هزيمة الكفار بصيغة المستقبل إلى المسلمين أن هزموا في معركة ما فهذه الهزيمة ليست هزيمة نهائية ، وان الهزيمة لاتليق بمن اختارهم الله للقتال في سبيله ورفع رايته . [١٣]

المبحث الثاني
ابتلاء المؤمنين بمصيبة الهزيمة

ابتلى الله تعالى المؤمنون في غزوة أُحد[١٤] بسلسلة من الامتحانات القاسية إذ ابتلاهم بأنواع القتل والجراح والاندحار، وتحدث القرآن الكريم عنها بإسهاب لوقوع مفاجآت كثيرة وتحولات، وامتحنهم بالمصائب والنكبات.

وحسبك ما جرى في أُحد إذ انتصر المسلمون في الجولة الأولى من المعركة،[١٥] لأن أمورهم كانت على ما يرام من حيث الطاعة والانضباط. وفي هذا نوى محمد بن كعب القرظي : لما رجع رسولنا إلى المدينة بعد أحد قد أصيبوا ، قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر، فنزل قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[١٦] وهذا الوعد القرآني في نجد مصداقة كلما التقى الحق والباطل وتستمر الصورة في إظهار عناية الله المؤمنين في بداية المعركة حين اوقعوا القتل الذريع بالمشركين،وكادوا ان يستأصلوا شأفتهم حين ظهر النزاع بينهم حول الغنيمة فمنهم من ثبت طاعة لأمر رسول الله ومنهم من ضعف أمام إغراء الغنيمة فغادر كثير منهم موضعه الذي حدد له النبي وأميره عبد الله بن جبير ظنا منهم ان المعركة أوشكت على الانتهاء ، بلغتهم فسعوا وراء الغنائم التي تركها العدو خلفه، وجبنهم وضعفهم وتنازعهم ، أي: اختلفتم ، يقصد هنا الرماة حين قال بعضهم : ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون فلنترك مكاننا، ونلحق الغنائم وقال غيرهم : بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي بالثبوت فيه، وهذا ما دل عليه قوله تعالى (وعصيتم) أي: عصيتم رسولكم وقائدكم بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه[١٧]،فكانت وصية الرسول للرماة الذين أجلسهم فوق الجبل وكانوا خميس رجلاً بأن لا يتركوا أماكنهم مهما كانت الظروف حتى يأذن لهم ،فعن البراء بن عازب، قَالَ: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ

اللَّـهِ، وَقَالَ:لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا) [18] وجاءت روايات أخرى يحذر فيها النبي محمد (ﷺ) الرماة من ترك أماكنهم مما كان حال المسلمين ونهاهم صراحة من ذلك فمن تلك الروايات ما ذكره ابن حجر العسقلاني:ان النبي (ﷺ) قال للرماة: ولا تبرحوا حتى أرسل إليكم واحموا ظهورنا فان رأيتمونا نقتل فلا تتصرونا وان رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا،[19] وهذه الروايات تبين شدة حذر رسولنا من نزولهم وقت المعركة وذلك لحماية المسلمين من خطر الالتفاف المشركين عليهم، وأيضا نجد الشدة في التحذير من عدم مفارقة أماكنهم ما ذكره سيد قطب في تفسيره : وأمرهم ان لا تفارقوا مكانهم ولو رأوا الطير تتخطف العسكر وان ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائكم [20]، لان ما جرى للرماة بعد هزيمة المشركين أنهم أخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير أميرهم : عهد إلى النبي أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً"[21]،

فترتب على عصيان الرماة ومخالفتهم لأوامر رسول الله بترك مواقعهم في الجبل طلباً للغنيمة وقوع الهزيمة بالمسلمين! لأنهم أصبحوا في تطويق العدو خالد وفرسانه من ورائهم المشركون الذين رجعوا من أمامهم فحصل في صفوفهم اضطراب وعمت الفوضى حتى ان بعض المسلمين قتلوا على يد أخوانهم وذلك لحصول التباس وعدم التمييز من شدة الهلع والفوضى التي عمتهم حتى أنهم قتلوا ابا حذيفة اليماني بالرغم من صياحه[22].

فنجد في السياق القرآني صورة عن فريقين فريق يرى ثواب الدنيا وفريق يريد ثواب الآخرة ، كما روى عبد الله بن مسعود ما ذكره ابن كثير في تفسيره قائلاً: ما كنت ارى أن أحداً من أصحاب رسول الله يريد الدنيا ،يعني الرماة الذين فعلوا مافعلوا يوم أحد حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد[23] لقول الله تعالى﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾[24]

فتوزعت القلوب فلم يعد الصف واحد ولم يعد الهدف واحد ، وشابهت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لابد منه في معركة الحق ، لأن معركة الحق ليست ككل معركة إنما هي معركة في الضمير،

ولا انتصار في معركة الميدان دون انتصار في معركة الضمير ، أنها معركة الله تعالى فلا ينصر الله فيها الا من خلصت نفوسهم له ، ولأنهم هكذا اختلفوا لم يعودوا مستحقين للعناية الربانية(٢٥) لذلك جاء قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾ (٢٦) اي: وبعد ان صدقكم الله وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حبس واستئصال صرفكم عنه بفشلكم وتنازعتم وعصيانكم وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم ويمحصكم ويميز بين الصادقين والمنافقين، والله صدقهم وعده ونصركم على قلتكم وكثرة المشركين واستمر هذا النصر إلى ان فشلوا وتنازعوا وعصوا ، وعندما وصولا إلى الغاية لم يعودوا مستحقين لهذه العناية ولذلك التأييد الرباني لمخالفتهم لسنة الله في استحقاق النصر الذي وعدَّ به أهل الثبات والصبر ، ولأن الرماة انقسموا لفريقين كم بينه الله تعالى في قول الله تعالى﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿١٥٢﴾ ﴾(٢٧)كالرماة الذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها، فأنقلب النصر إلى هزيمة ؛ لان النصر مشروط بلزوم طاعة رسول الله وبالصبر والتقوى والاحتراز عن مخالفة أمر الله ، وصار الكر فراً، ووجد العدو ثغرة يحقق بها مأربه دون جهد أو عناء وما ذلك إلا حين ضعفت نفوس بعض الرماة أمام إغراء الغنائم وتنازعوا فيما بينهم ، وخالفوا أمر رسول الله نبيهم وقائدهم فكان جزاءهم ان تلقوا الهزيمة المريرة والقروح الأليمة ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح ، وهكذا تقع الإحداث مرتبة على أسبابها ، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها بلا تعارض بين هذا أو ذاك فلكل حادث سبب، ووراء كل سبب تدبير من اللطيف الخبير(٢٨).

وان الله سنته في صفحات الكون ونواميس الوجود توحي بأن نصر الله للمؤمنين وهزيمته الكافرين سنة كونية ترتبط بنواميس الوجود الكبرى(٢٩) فكانت الغاية من انصرافكم ليبتليكم ويمتحنكم وليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر ليميز بين الصادقين والمنافقين أو ليبتليكم على المصاعب ويمتحن معنوياتكم واستمراركم على ما كنتم عليه من الإيمان وربط القلب، وذلك بسبب ارتكاب غلطة المخالفة لأمر

الرسول وأتى عليكم من أتى وكان المناسب لكم العقاب الصارم(٣٠) ، أي: كف معونته عنكم فغلبوكم وعبر بالصرف على أن الأمر أمره ليبتليكم ، أي: ليختبركم بامتحان صبركم على المصائب وثباتكم عندها مع علمه ولكن عدله اقتضى أن يجازي العبد على ما يعمله منه، وإذا كان ماحدث هو التجربة الأولى والخطيئة الأولى من نوعها فانه تعالى عامل أصحاب رسول الله بالفضل من قبول التوبة والعفو وغير ذلك من أنواع فضله الذي لا يحصى فان الله المتفضل على المؤمنين في جميع الأحوال سواء أديل لهم او عليهم غلبوا او غلبوا لان الابتلاء رحمه كما ان النصر رحمه، ويستمر التصوير القرآني لحال الرماة في ساحة المعركة في انهزامهم ، والعبارة ترسم صورة حركتهم النفسية في ألفاظ قلائل ، فهم مصعدون في الجبل هرباً ، اضطراب ، رعب ودهش لا يلتفت احد منهم إلى احد ولا يجيب منهم داعي احد كما أشار إلى هذه الصورة(٣١) في قوله تعالى﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾(٣٢)أي: ذهبتم وأبعدتم في الأرض منهزمين ، فالأصعاد هو الذهاب في الأرض ومعناه تفرون مصعدين ، أي: تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض والإبعاد فيه، بصعود بعضهم إلى جبل أحد فراراً ولا تعرجون ولا يلتفت بعضكم إلى بعض ولا إلى من ورائكم لشدة الدهشة التي غرتكم والذعر الذي فاجأكم والخوف والرعب، والحال أنه ليس عليكم خطر كبير اذا لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ويباشر الهيجاء ، بل وخلفتم الرسول وراء ظهوركم وهو يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء والى الرجعة والعودة والكرّة، أي: لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها، فجعل الرسول يدعو الناس إلى عباد الله إلى عباد الله إنا رسول الله من يكرُّ فله الجنة ، فذكر الله تعالى صعودهم إلى الجبل ثم ذكر دعاء النبي إياهم (٣٣)،فلم تلتفتوا إليه ولا عرضتم إليه فالفرار نفسه موجب للوم ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لوما بتخلفكم عنها(٣٤) ،ويؤكد الله تعالى ان سبب التولي هو ببعض ذنوبهم السابقة كما في قول الله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا

ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾[٣٥]

في هذه الآية نوه البغوي رحمه الله: أي: أن الذين انهزموا يوم التقى الجمعان في أحد ولم يبق مع الرسول إلا ثلاثة عشر رجلا ستة من المهاجرين وهم: أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وإما الذين تولوا كما في قوله تعالى (إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ)أي: طلب زلتهم[٣٦]، أي: جعلهم زالين ، والزلل مستعار لفعل الخطيئة والسين والتاء والهمزة فيه للتأكيد، فالخطيئة هنا متمثلة بالانهزام، أي: ان ما أصابهم كان من آثار الشيطان رماهم ببعض ما كسبوا من صنيعهم[٣٧]، فان الذين تولوا عن القتال والعصيان وترك جمع المجاهدين يوم اللقاء مع جمع الكفار في معركة أُحد لم يكن توليهم لضعف في العدو والعدة ولا لمصلحة المؤمنين إنما حملهم على ذلك الزلل والعصيان الشيطان ، فكان إعراضهم على القتال بشؤم ما اكتسبوه من الذنوب ، والذنب هو مخالفة الرسول ، فمن خالفه في الأوامر والنواهي فقد وافق الشيطان في ارتكاب المعاصي وذلك تركوا جيوش المجاهدين وتقاعسوا عن نصرة الدين، وقال السلف ان من جزاء الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها؛ لان المعصية تجر صاحبها إلى المعصية، فالذنوب بالنسبة لمرتكبيها كالأمراض بالنسبة للمصاب بها، حيث تضعف مقاومته وتفتح ثغرة في بدنه تتسلل منها الجراثيم أو تقوي فيه الموجود منها[٣٨]،"وان سب التولي أو الفرار عند التقاء الجمعان هو وسوسة الشيطان ببعض ما اكتسبوه من ذنوب ، أي أن الله تعالى سلط عليهم الشيطان بسبب الذنوب التي اقترفوها فجعلهم يتولون ببعض ذنوبهم السابقة، فلا يمكن النصر إلا بتجنب وساوس الشيطان ووسائل الضعف ، والهزيمة واقترف الخطايا والذنوب"، ويستمر التصوير القرآني لهذه

الحادثة بأنه ما حدث لهم من مصائب سواء كانت قتلا أم هزيمة أم أسراً فكل ذلك وفق قضاء الله وأرادته وقدرة كما في قول الله تعالى﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[٣٩] أي: وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أُحد فهو بأذن الله وإرادته[٤٠] وقضائه السابق يجعل المسببات نتائج لأسبابها فكل عسكر يخطئ الرأي ويعصي فائدة ، ويخلي بين

العدو وبين ظهره ، يصاب بمثل ما أصبتم به، او بما هو أشد وأنكى منه ، أو أن فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم للآخرين[٤١]، وفي هذه الآية ذكر الماوردي فيها قولان: احدهما: ليرى المؤمنين،والأخر ليميزوا من المنافقين وليعلم الذين نافقوا ، يعني عبد الله بن أبي وأصحابه[٤٢] يعني ان أصابتكم المصيبة لكي يظهر المؤمن من المنافق كما، وتدل هذه الآية على قدرة الله من وراء الأمر كله لحكمه يراها حيث ان قدر الله من وراء كل أمر يحدث كما حدث يوم أُحد من فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان كله بقضاء الله وقدره[٤٣] وله الحكمة في ذلك ليعلم الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا [٤٤]، وان الله تعالى كتب على نفسه، النصر لأوليائه ، لحمله رايته وأصحاب عقيدته ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم وباستكمال العدة في طاقاتهم ، وببذل الجهد الذي في وسعهم فهذه سنة الله وسنة الله لا تحابي أحدا ، فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم ان يتقبلوا نتيجة التقصير فان كونهم مسلمين لا تقتضي صرف السنن لهم وإبطال الناموس ، فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس، ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك ولا يضيع هباء ، فإن استسلامهم الله وحملهم لرايته وعزمهم على طاعته وإلزام منهجه من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والفرح ، وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب تزيد من نقاء العقيدة وتمحيص القلوب وتطهير الصفوف وتؤهل للنصر الموعود وتنهي بالخير والبركة ولا تطرده المسلمين في كنف الله ورعايته وعنايته، بل تمدهم بزاد الطريق ، مما يمسهم من البرح والألم والضيق في أثناء الطريق[٤٥]، وان الأمر الذي أصابكم يوم أُحد من قتل وأسر وهزيمة لم يقع مصادفة ولا جزافاً ، ولم يقع عبثا ولا سدى فكل حركة محسوبة حسابها في تصميم هذا الكون ومقدرتها عليها ونتائجها في مجموعها ومع جريانها وفق السنن والقوانين الثابتة التي لا تنحرف ولا تتعطل ولا تحابي تحقق الحكمة الكامنة وراءها، والذي وقع في غزوة احد عرف الله المسلمين سننه وشرطه في النصر والهزيمة فعندما خالفوا سننه وشرطه فتعرضوا للألم والقرح ، ولكن الأمر لم ينته عن هذا الحد فقد كان وراء المخالفة

والألم تحقيق قدر الله في تمييز المؤمنين من المنافقين في الصف وتمحيص قلوب المؤمنين وتجليه ما فيها من غبش في التصور من ضعف وقصور(٤٦)،

فكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول بفرارهم عما يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم للرسول للرسول يصبه ما أصابهم وهو ثابت دونهم وهم عنه فارون ذك كي لا يجعلهم شيئا فأنهم ولا أذى أصابهم فجزأهم بحسب عملهم بالغم الذي هو الألم في نفوسهم كما في قوله تعالى(فأثابكم غما بغم) أي ترتب على الصرف إثابتكم،واصل الإثابة إعطاء الثواب وهو جزاء على عطاء، والغم ليس بخير، أي جازاكم الله على ذلك الإصعاد والمقارن للعرف ان أثابكم غما، أي: الألم في نفوسكم، والمراد أن عاقبكم بغم كقول الله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم)، وقد يكون المعنى فجازاكم الله بغم بعد غم ، وغم متصل بغم من الجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر، وأعظم غم أصابهم سوى هذا كله ما أرجف به من قتل رسول الله، وهذا كله بسبب الصرف الذي سببه الجبن والاختلاف والعصيان بسب عدم خلوص نية بعضهم إذا لم تتمخض للأخر فهذه العلة الكبرى، وذلك بسبب الخطأ الذي ارتكب ، جازاكم بالهزيمة وتوابعها وهو الغم العظيم سبب غم وقعتم به وأوقعتموه رسول الله بمخالفتكم أمره(٤٧)، وقالوا أيضا: فجزأكم غما على غم اي أنساهم بمصيبة صغيرة مصيبة كبيرة وهي القتل فكان الغم الأول سبب الهزيمة :حين قيل قتل محمد ﷺ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم ليس لهم أن يلعونا " ،أي: كربا بعد كرب وقتل من قتل من إخوانكم وعلو عدوكم عليهم وما وقع في أنفسكم من قول من قال قتل نبيكم فكان ذلك متتابعاً عليكم غماً بغم(٤٨) ، فكان الغم الأول مافاتهم من الفتح والغنيمة فاجتمعوا وكانوا يذكرون فيما بينهم ما أصابهم في ذلك اليوم ، والغم الثاني اذا صعد خالد بن الوليد فلما عاينوه أذعرهم، أي خوفهم فأنساهم ما كانوا من الحزن(٤٩) ، او أثابكم بذلك الغم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، وما أصابكم من القتل والجراح والهزيمة فهو أنساهم بمصيبة صغيرة ومصيبة كبيرة ، وقيل(لا) زيادة في التوبيخ والتنديم لكلا تحزنوا على ما فاتكم ، أي: سكت عن تثريبكم ، ولم يظهر الا الاغتنام لأجلكم ، لكيلا يذكركم بالتثريب حزنا على ما فاتكم ، وتقاضى عن ذكره جبرا لخواطركم.

وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ بعد الذي كان قد اراكم في كل ذلك ما تحبسون بمعصيتكم أمر ربكم وخلافكم أمر نبيكم ثم ظنكم ان نبيكم قد قتل وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم(٥٠) ،

ثم بين حكمته البالغة بما حدث وهو تمرين المسلمين وتدريبهم على تحمل المصائب وعدم الجزع لها وعدم المبالاة بالفائت ، قال تعالى (لاتحزنوا) جرعكم الغموم لئلا تحزنوا فيما بعد على فائت في المنافع ، وبين ابن كثير في تفسيره:أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم (ولا ما أصابكم) أي: ولا على مصيبة من المضار من مثل ما حدث لكم هنا من القتل والجراح(٥١).

فالمطلوب عدم الأسى على ما فات من الظفرة والغنيمة وعدم الحزن على ما أصابكم من الهزيمة، والجراح فإن التربية إنما تكون بالمران على تجرع الغموم، وتحمل الصعاب(٥٢)، ويخاطب الله تعالى المؤمنين ويذكرهم بما أصابهم يوم أُحد على أيدي الكفار قد أصبتم منهم يوم بدر ، لكن عندما أصابتكم ماحدث يوم احد تعجبتم وتناسيتم ان السبب الرئيس نابع من أنفسكم لمخالفة أوامر رسول الله لقوله تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٥٣) فعن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد من العامل المقبل ، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء بالعام السابق فقتل منه سبعون وفر أصحاب النبي عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه الكريم فأنزل الله قوله تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾(٥٤) إلى قول الله تعالى﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٥٥) قال بأخذكم الفداء(٥٦)،

والمصيبة تعني هنا هي ما اصيب بعض المسلمين يوم أحد من قتل سبعين رجلا منهم والجرحى الذين جرحوا منهم بأحد وظهور المشركين عليهم(٥٧)، وهي إحدى المصائب ما يصيب الإنسان من سوء وأسواها مصيبة الموت(٥٨)،

أي: أصبتم انتم أيها المؤمنون يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا واسروا سبعين أسيرا والأسير في حكم المقتول لان الأسر يقتل أسيره ان أراد ، فان الإسارة عار والعار على الأحرار أشد من القتل والدمار ، وهزموهم يوم بدر ويوم احد في الابتداء، فقتلتم فيه قريبا من عشرين ، فقتلتم منه في يومين،[٥٩] وكأنه قال، ولئن متم او أصابتكم مصيبة أحد قد أصبتم مثليها يوم بدر فقلتم أنى هذا[٦٠] ؟ أي من أين لنا هذا وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصاب ، ومن أين جرى علينا هذا ، متنكرين لم إصابتكم فقلتم من أين نزل؟ الم تعلموا ان الحرب سجال وأما علمتم إصابة الأنبياء وجيوشهم بما أصابتكم في القتال ؟ وأما عرفتم إن سنة الله في الكون لا تبديل لها في الأجيال[٦١]،أي: لا ينبغي لكم أن تعجبوا بما حل بكم في هذه الواقعة ، فان خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم في بدر، فقد كان نصركم في تلك الواقعة ضعف انتصار المشركين في هذه، فلما نسيتم فضل الله عليكم في بدر ، فلم تذكروه وأخذتم تعجبون مما أصابكم في أحد وتسألون عن سببه وكيف أصابنا هذا ونحن مسلمون [٦٢]؟ وقالوا بعضهم : فلم تستغربون وتقولون من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل؟ ونحن نقاتل من اجل الله ونحن مسلمون وفينا رسول الله وأعداؤنا مشركون وانتم تعرفون السبب هو من عند أنفسكم عندما نزلتم من أماكنكم طلبا للغنيمة او لمتاع الدنيا فقال الله تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾[٦٣]أي: قل يا محمد جوابا لسؤالهم ، ان هذا الذي سألتم من هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي من لزوم المكان والذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم على كل حال، فهذا سر الهزيمة والقتل الذريع الذي حصل لكم ، فالمصيبة التي حدث لكم بسبب ما اقترفتها أيد المخالفين ولو أنهم بقوا في مركزهم حافظين لخليفة الأصحاب ما نزل عليهم ذلك القتل والعذاب، أي سبب عصيانهم لرسول الله حين أمرهم ان لا يبرحوا مكانهم ، فعصوا أمره وترك أكثرهم مكانه ، فجعلوا هذه الواقعة عبرة للمستقبل ولعكم تنتصرون على الأعداء بعد زمن يسير[٦٤] ، وذكر الماوردي في تفسير قول الله تعالى (قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ) ثلاثة أقاويل: احدهما: خلافهم من الخروج من المدينة للقتال يوم احد ، وقد كان النبي محمد ﷺأمرهم ان يتحصنوا

بها، والثاني اختيارهم الفداء من السبعين يوم بدر على القتل ، وقد قيل لهم ان فعلتم ذلك قتل منكم مثلهم ، والثالث : خلاف الرماة يوم أحد لأمر النبي في ملازمة موضعه [٦٥]،أي: ان تلك قد أصابتكم مصيبة في أخوانكم بذنوبكم ، فقد أصبتم مثليها قبل من عدوكم، من الذي كان قبل ببدر قتلا وأسراً ، ونسيتم معصيتكم وخلافكم عما أمركم به نبيكم ، انتم أحللته ذلك بأنفسكم[٦٦]، او بذنوبكم التي سلفت منكم حصلت لكم مصيبة الهزيمة والقتل قبل القتال فكأنها تطهيراً لما سلف من ذنوبكم[٦٧] لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [٦٨] فهذه الآية كبيان ان ما أصابكم أيها الناس أي مصيبة من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات والأحوال المكروهة كالآلام والإسقام والقحط وأشباهها بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها لقوله تعالى (وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ) أي: يعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها عاجلاً أو آجلاً[٦٩]، ونوه المراغي في تفسير: "وفائدة قوله تعالى (قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا) وهي التنبيه إلى ان أمور الدنيا لاتدوم على نهج واحد فانتم هزمتموهم مرتين ، فكيف تستبعدون ان يهزموكم مرة واحدة ، وقد أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بجوابين هما: إحداهما : قوله تعالى:(قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا)، والأخر: قل هو من غير أنفسكم ، أي: ان هذا الذي وقع إنما وقع بشؤم معصيتكم لأنكم عصيتم الرسول في أمور كثيرة منها:-

أ- ان الرسول قال عليه الصلاة والسلام: ان المصلحة في البقاء في المدينة فلا تخرجوا إلى أحد، فأبت إلا الخروج وكان الرأي ماراه الرسول حتى اذا ما دخلها المشركون قاتلوهم على أفواه الأزقة والشوارع ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من سطوح المنازل . ب-أنكم فشلتم وضعفتم في الرأي. ج- أنكم تنازعتم وحصلت بينكم مهاترة كلامية. د- أنكم عصيتم الرسول وفارقتم المكان الذي أمركم بالوقوف فيه لحماية ظهوركم بنضج عدوكم بالنبل أذا أراد ان يكون من ورائكم ، ولا شك ان العقوبات آثار لازمة للأعمال، والله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط ترك المعصية كما قال تعالى ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ ﴾[٧٠].

فعلى الناس جميعاً أن تعرف ان ما ابتلى به المسلمون أفراداً وجماعات، نجدهم يلقون اللوم والمسؤولية على غيرهم وينسون أنفسهم، فتراهم إذا وقعت عليهم مصيبة أو نكبة راحوا يفتشون على من يحملونه مسؤولية ما وقع عليهم من نكبات ومصائب، مثل فقد ديارهم واستيلاء العدو عليهم، وهزائمهم في الحروب وينسون أنفسهم فلا يحملونها شيئاً ، وكذلك الحال في الجماعات المسلمة التي تقع في مخالفات الشرع ومخالفات سنن الله، وفي العمل الجماعي ومتطلباته فتقع عليها النكبات والمصائب ، فيرمي المسؤولية على الغير فيما حلَّ بها من مصائب لكن القرآن الكريم حدد الجهة التي تلام وتقع عليها المسؤولية بالدرجة الأولى بقوله تعالى (قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا) فالله تعالى حدد الجهة التي تلام عند حلول النكبة والمصيبة هي أنفسنا ، فلا يجوز شرعاً ان نبرئ أنفسنا مما يقع علينا من النكبات والمصائب ونلقي اللوم والمسؤولية على غيرها[٧١].

فان الهزيمة التي حصلت في غزوة أُحد أحدثت ألما وأذى وجروحا وقتل وأسر للمسلمين بشكل خاص فأطلق عليها القرآن الكريم بالمصيبة لما أصابهم في جميع الجوانب المادية والمعنوية فكانت مصيبة عليهم لأنهم خالفوا أوامر قائدهم ورسوله المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهذا يعقبه عذاب وحسرة في الدنيا والآخرة وكذلك سبب فرارهم عند التقى الجمعان إيثارهم بحب الدنيا على ثواب وجزاء الآخرة فكانت بمثابة درسا تربويا تعلم منه المسلمون وأسلافهم عاقبة مخالفة أوامر وعدم طاعتهم لرسولهم ماذا يحل بهم من مصائب شتى في جميع الجوانب النفسية والمادية والمعنوية. وهذا ما يحصل الآن لبعض المسلمين بسبب ذنوبهم ومعاصيهم التي اقترفوها من مصائب على الصعيد الشخصي والعائلي.

المبحث الثالث
أسباب الهزيمة

علينا ان نبتعد عن الذنوب ولا سيما مخالفة سنن رسولنا لأنها تكون ما فيها وخيمة وأثارها سنة ومصيبة على نفسية المؤمن وشؤون حياته المختلفة ، وفي هذا قال عبد الكريم زيدان "قلنا ان سبب المصائب يرجع إلى فعل الإنسان وهو يتحمل مسؤولية ذلك وما يحل بالإنسان يرجع إلى أحد شيئين: أحداهما:معاصيه ،والاخر: مخالفته لسنة الله وسنته التي وضعها الله لتجري عليها أمور الحياة، ومخالفة المسلم لسنن الله في الحياة نوع من مخالفته لشرع الله ؛ لان الله تعالى أمر بان نلاحظ سننه فيما نأخذ ونترك ، ولن تحرف هذه السنن للمسلم لكونه مسلماً، وقد قصر في مراعاتها وخالف الشرع في أمره بهذه المراعاة ، فالمعاصي لشرع الله هي سبب ما يحل بالإنسان وهي بسبب ما حل بالمسلمين وما يحل بهم، وكما قال ابن تيمية فمن المعلوم بما أرنا الله من آياته في الأفاق وفي أنفسنا وبما شهد في كتابه ان المعاصي سبب المصائب(٧٢)، وعلى هذا فأسباب الهزيمة كثيرة منها:

١- ان النفس الإنسانية بطبيعتها تميل إلى تبرئة نفسها من الخطأ والخلل عند من وقوع المصائب والهزائم والمآسي، وتلقي باللوم على الآخرين لتثبت أنها على صواب، وأنها لم تخطئ، بل ان غيرها هو الذي يخطئ، لكن المنهج الآلهي رد الأمور إلى نصابها،وكشف للمؤمنين عن مصدر الخلل في يوم أحد اذ المسلمون يتسالون أنى هذا؟ ومن أين هذا يارب؟ ولما أصابنا ؟ فأجابهم سبحانه ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾(٧٣) والمراد ان المصيبة التي يصاب بها المسلم من نفسه(٧٤) ، والمراد في هذه الآية "من أنفسكم" هي التي تخلخلت وفشلت وتنازعت ، وأنفسكم هي التي أخلت بشروط النصر فهي التي خالجتها الإطماع والهواجس وهي التي عصت رسول الله ورسوله ، وهذا الذي تستغربون إنما هو من عند أنفسكم فقد انطبقت سنة الله عليكم حين عرضتم أنفسكم لها"(٧٥)،

فان الذنوب والمعاصي رأس الفتنة ومحراك الشر، وهي سبب رئيس وعامل هام من عوامل الهزيمة، فكيف تطلب من الله سبحانه النصر ونحن تعصيه، وقد علمنا سبحانه ان المعصية سبب

الهلاك ولفت أنظار من يقرأ القرآن إلى سنة في هلاك الأمم بسبب الذنوب والمعاصي نحو قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[٧٦] ، وان المعصية تضعف مقاومة المؤمن للشيطان ، مما قد يؤدي به إلى التولي عن مواجهة العدو نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ ﴾[٧٧]

فهؤلاء الذين هزموا وفروا قد ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها، فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ وأستزلهم فزلوا وسقطوا ، وفي هذا تصوير لحالة النفس البشرية حيث ترتكب الخطيئة فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف ارتباطها بالله ويختل توازنها وتماسكها،وتصبح عرض للوساوس والهواجس.

ومن المعاصي التي تؤدي إلى الهزيمة في إثناء المعركة : معصية أوامر القائد مثل ما وقع للمسلمين يوم احد من مخالفة الرماة أوامر الرسول (ﷺ) .[٧٨]

٢- المصيبة اذا وقعت فهي قدر الله تعالى:-

قد تقع الكارثة فيصاب المسلمون او تحل بهم كارثة، فيجزع المؤمنون ، ويصابون الإحباط واليأس والقنوط ، وقد ينحرف بعضهم عن الجادة، إلا أن المنهج الإلهي يعالج هذا الخلل ليعيد النفس المؤمنة إلى مكانتها الصحيحة، فهو ينبه إلى ان المصائب ماهي الا قدر من الله تعالى وما على المؤمن الا ان يصبروا ويرضى بقدر الله تعالى، ولهذا نجد القرآن يخاطب النفس الإنسانية ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ ﴾[٧٩] وقال تعالى أيضا ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ ﴾[٨٠] فالقرآن الكريم هنا يريد أن يعالج مصيبة حلت أو يخشى من آثارها المعنوية والنفسية على المؤمنين [٨١].

فان تلك الهزيمة النكراء في غزوة أُحد للمسلمين كانت سببا تجسدت في حب الدنيا الذي خالط الإيمان ونتج عنه التنازع والعصيان والغل ، فانطلق أوائل الرماة عاصين لأوامر رسول الله

يجمعون الغنائم ، إشارة إلى ذلك بقوله (منكم من يريد الدنيا) أي : سبب عدم خلوص الإيمان وتجرده من أولئك الرماة كانت بحقهم الهزيمة لاغيرها، فان الله قد صدق المؤمنين ووعدهم بالنصر حتى رأوه، لكن عندما خالفت طائفة منهم وعصت فلم يخلص إيمانهم وهو شرط النصر من الله لم يعدوا مستحقين للغاية الربانية.

إذن فالهزيمة من عند الله وبأذنه وقدره وحكمه وإرادته ومشيئته يهزم من شاء أمامه من شاء ، وانه اذا قدرها على قوم فلا مناص لهم عنها، وهذه عقيدة يجب على المجاهد ان يعتنقها قبل خروجه للجهاد ، وعليه ان يستحضرها ويذكر بها نفسه دائما ، وهذا ما يطمئن قلبه ويهو روعه ويريح نفسه ، ويثبت قدميه ويجعله يسلم الله أمره ، ويجعله يعتقه ويوقن انه لن يصبه الا ما كتبه الله له وما قدره عليه، وانه لن يخرج عن أرادته وقدره وقضائه قيد أنملة او دون ذلك، كما اخبر عن هزيمة جالوت في قوله (فهزموهم بإذن الله)أي: بأمره وإرادته(٨٢) فما يحدث من نصر وهزيمة وشر ورخاء فان بإذنه تعالى وتقديره.

٣- لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أُحد أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله محمد (ﷺ) فهذا الربط بين عقيدة الإيمان ربا معبوداً وحده وبين بقاء شخص النبي خالداً فيها خالطه الحب المغلوب بالعاطفة ، الربط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول (ﷺ) البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة من الفوضى والدهشة والاستغراب ، ومتابعة الرسول أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكارة، والعمل الدائب على نشر الرسالة وتبليغ الدعوة وهذا التأسي هو الجانب الآخر من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي من هذه الدنيا ، فكانت غزوة أُحد مقدمه وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على إعقابهم ان مات رسول الله ، وقتل فالواجب ان يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه او يقتلوا ، فأنهم يعبدون رب محمد (ﷺ) لهذا نجد الله تعالى وبخهم على من رجع عن دينه لما صرخ الشيطان أن محمد قد قتل قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ

﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[٨٣] فهذه الآية في تتمة العتاب مع المنهزمين ، أي لم يكن لهم الا الانهزام وان قتل محمد والنبوة لا تدرأ الموت والآيات لا تزول بموت الأنبياء[٨٤].

٤- **الذنوب والمعاصي:**

تعد الذنوب والمعاصي طريق الشيطان يستدرج من يطيعه ، فقد حذرنا الله تعالى من الشيطان وألاعيبه عندما تحدث عن غزوة أُحد إذ قال الله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[٨٥]
ذكرت هذه الآية المصاب الجلل في غزوة أُحد حيث أنها جمعت موانع النصر وهي الذنوب والمعاصي، وان الذي أوقعهم في هذا الزلل أي الهزيمة وعدم الثبات في المعركة الا وهو الشيطان الذي سبب مخالفته أمر رسول الله مما أدى إلى تعطيل النصر وعدم تحقيقه، فهذه سنة الله تعالى ، وهي ان الهزائم الا تقع الا بسبب إعمال يصبها المسلم فتبعد عنه النصر وتقرب اليه الهزيمة، في هذه الآية قال سيد قطب رحمه الله "قد تكون الإشارة في هذه الآية خاصة بالرماية الذين جال في نفوسهم الطمع في الغنيمة ولكنها في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة ، فتفقد ثقتها في قوتها ، ويضعف الله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه! وعندئذ يجد الشيطان طريقة إلى هذه النفس، فيقودها إلى زلزلة بعد الزلزلة ومن هنا كان الاستغفار من الذنب هو أول ما توجه به الربيون الذين قاتلوا مع النبيين في مواجهة الأعداء [٨٦] ولكن لو تتبعنا حال الأمم السالفة ، لوجدنا ان حالها لم يتغير من الرخاء إلى الشدة ومن النصر إلى الهزيمة الا بعد ان ظهر الفساد فيها والذنوب، وعصت خالقها، ولايحكم بهذا علماء المسلمين فقط، بل نجد ان العقلاء من علماء الغرب يحكمون بذلك أيضا ، مثلا على ذلك ما كان في أسباب هزيمة المسلمين على يد هولاكو هو انشغال المسلمين وانتشار الذنوب والمعاصي فيهم.[٨٧]

٥- إيثار الدنيا على الآخرة.

ان السبب الرئيس والدافع الوحيد في تفكير الرماة آنذاك هو جمع أو الحصول على الغنيمة لما ظنوه من انهزام المشركين إمام المسلمين في غزوة أُحد هو إيثار الدنيا على الآخرة الذي أوقعهم في الخطيئة(٨٨)، وان في هذا الذي حدث لعبرة عظيمة للدعاة تعليما لهم بان حب الدنيا قد يتسلل إلى قلوب المؤمنين ويخفي عليهم ، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخر ومتطلبات الفوز بنعيمها او يعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر رسول الله العربي بتأويل ساقط يدفعه هوى النفس وحب الدنيا: فيخالفون الشرع وينسون المحُكم من أوامره كل هذا يحدث ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية، وعلى رأسها حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان وهذا يستدعي التفتيش الدائم في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها؛ حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها(٨٩)،وعن عبد الله بن مسعود كما يذكر ابن كثير: بأنه ما كنت أرى أن احد من أصحاب رسول الله يحب الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أُحد نحو قول الله تعالى﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(٩٠) وحب الدنيا ويقف عند حب متاعها المادي، وإنما يشمل متاعها المعنوي وعلى رأس هذه المتاع حب السلطة والرياسة فليحذر الدعاة من ذلك، لئلا يقعوا في مخالفة أوامر جماعتهم المسلمة بحجة إرادة والخير والنصح لها ومصلحة الدعوة والحقيقة أنهم يتحركون بدوافع هوى النفس وحب الدنيا(٩١)، كما في غزوة احد أمرهم الرسول بعدم التحرك ، وذلك لحماية ظهور المسلمين من ان يأتيهم العدو من خلفهم مهما كانت الظروف والأحوال ، ولكنهم خالفوا هذا الأمر الا قليل منهم فهجم العدو على ما بقى وقتلهم وهكذا حلت بالمسلمين بعد كان النصر لهم في اول القتال ، وكل ذلك كان بشؤم مخالفة الرماة أو رسول الله بالبقاء في أماكنهم(٩٢)، ولان بعضهم لم يصبروا على بأساء الحرب حتى تتجلي وتتكشف ولم يحافظ على أمر الرسول بالبقاء في أماكنهم المقررة لهم على حال وذهبوا إلى اخذ الغنائم في أول فتره الواقعة

حتى انهزمت قريش وكانت تلك المخالفة مبدأ انقلاب الأمر عل المسلمين وعودة المشركين في ذلك الوقت إليهم وانتصارهم عليهم(٩٣).

فعلى الدعاة الاعتصام بطاعة أميرهم ما دامت هذه الطاعة في غير معصية ولا يسوغ لهم مخالفة أوامره مادامت في الأمور الاجتهادية ، ولا تقع في دائرة معصية الله ان التزامهم بهذه الطاعة أمر ضروري لنجاحهم في دعوتهم وقبول الناس منهم ما يدعون اليه وليعلموا ان طاعتهم لأميرهم لشرع الله ، لأنه أمر بطاعة أمير في غير معصية الله وإذا لم يلتزموا بهذه الطاعة وقعوا في الفوضى والفرقة وتشتت الآراء وكل هذه الأمور مقومات للنصر. (٩٤)

المبحث الرابع

الحكم والغايات من ابتلاء المؤمنين بمصيبة الهزيمة

إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا ، فيه حكم عظيمه لا يعلمها الا الله تعالى فمنها:

أولا- استخراج عبوديتهم وذلهم الله ، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائما منصورين قاهرين غالبين ليضروا واشروا ، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصورا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة ، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة احكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارة. وكونهم مغلوبين تارة ، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم وأنابوا إليه.

ثانيا- أنهم لو كانوا دائما منصورين قاهرين، لدخل معهم من ليس قصده الدين، ومتابعة الرسول: فانه إنما يضاف إلى من له الغلبة والعزة ، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً، لم يرحل معهم احد، فاقتضت الحكمة الإلهية ان كان لهم الدولة تارة وعليهم تارة أخرى ، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، من ليس له مراد إلا الدنيا والحياة.

ثالثا- وانه تعالى يحب من عباده تكميل عبوديتهم وعلى السراء والضراء، وفي حالة العافية، والبلاء ، وفي حالة إدالتهم والأدلة عليهم ، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى

تلك الحال لاتحصل الا بها ، ولايستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان الا بالحر والبرد والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها ، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني، والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمة ممتنع(٩٥).

رابعا– ان امتحانهم بإدالة عدوهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم كما قال تعالى في حكمه إدالة الكفار على المؤمنين يوم احد ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾(٩٦)

خامسا– ان سنة الله سبحانه وتعالى هي سنة مطردة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك وتدور عليهم الدائرة ويقسوا عليهم الابتلاء ، لأن الله يعدم للنصر في معركة اكبر، ولان الله يهيئ الظروف من حوله ليؤتى النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع ، وقد يبطئ النصر على الذين ظلموا واخرجوا من ديارهم ، لحكمه يريدها الله وقد يبطئ النصر، لان بيئة الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ولم تحشد بعد طاقاتها ولم تحفر كل حلية وتجمع لتعرف أقصى المذخور منها من صنوف واستعداد، وأيضا قد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة أخر ما في طوقها من قوة وأخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزا ولا غالياً ، ولأن الأمة المؤمنة بعد لم تتجرد من كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته في تقاتل لمغنم تحققه والله يريد أن يكون الجهاد له وحده في سبيله(٩٧)، وهذه السنة تتعلق بقانون المداولة والذي يرتبط ارتباطا كامل بمدى الالتزام الخلق بتعاليم الإسلام وإعراضهم عنها، والمرء واحد من اثنين ، اما ان يسلك بنفسه طريق النجاح والفلاح واما ان يعرض عنها فينتكب الطريق ليخسر الدنيا والآخرة. (٩٨)

سادسا: ان الله عز وجل أراد للمسلمين ان يمروا بهذه التجربة الإيمانية الكبرى فجعلهم ينهزمون ؛ لان الرماة خالفوا أمر رسول الله ، وهو قد أمرهم بعدم المغادرة لأماكنهم مهما حدث ، فأراد ان

يلفتهم إلى ان النصر من عند الله وليس بقولهم وإنهم اذا خالفوا رسول الله سيصيبهم الذل والهوان في الدنيا، حتى يعلموا ان ألعزه في تمسكهم بمنهج الله وليس في دانيتهم وان الأقدار بيد الله تجري علينا فان أصابنا خير شكروا وان أصابهم الضر صبروا ، لأن على هذا ثوابا وعلى هذا ثواباً(٩٩) وأراد ان يعلمكم من دروس الهزيمة ما يتمكنون به من تجنب أسبابها في معارك أخرى لما أصابكم من مصائب وقلق يوم احد. (١٠٠)

سابعا: الابتلاء من الله نعمة لا تصب الا من يريد له الله به خيراً فإذا أصابت أولياءه فإنما تصبهم لخير يريده لهم ولو وقع هذا الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء فهناك حكمة مغيبة وتدبير للطيف وفضل الله على أوليائه المؤمنين وبهذا المفهوم تستقر القلوب ، وتطمئن النفوس وتستقر الحقائق البسيطة في التصور الإسلامي ، فابتلائهم في يوم احد بسبب في تصرفاتهم وتصورتهم ليميز الخبيث من الطيب في هذا الطريق(١٠١)، وللتمييز بين المنافقين الذين اندسوا في الصفوف تحت تأثير ملابسات شتى ، وليس في حب في الإسلام في شيء ، وهذا الابتلاء خير وسيلة حتى يظهر الناس على حقيقتهم، وان الآلام التي حلت بالمسلمين يومها من قتل وجرح ينبت من حكمة ذلك الابتلاء والاختبار والامتحان للفئة المؤمنة ومن ينتسب إليها ليظهر كل إنسان على حقيقته فمن الناس من يريد الدنيا، ومنهم من يريد الآخرة(١٠٢)، فان مالقيه الرسول عليه الصلاة والسلام من الكفار من الأذى الا دليل واضح على ان الله تعالى خلق الناس ليبتليهم وهذا الابتلاء سنة عامة لايستثنى منها احد حتى لو كان رسولا نبيا، بل ان المقرر في هذا الدين ان اشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل(١٠٣) ، ففي إصابة الرسول عزاء لدعاة فيما ينالهم من أذى في أجسامهم او غيرها(١٠٤).

ثامنا: كانت غزوة أُحد ابتلاء من الله تعالى: فقد جرت حكمة الله ان الرسل تبتلى ثم تكون العاقبة لهم، ولو انتصروا دائما لدخل في المسلمين من ليس منهم، ولا يمس ما وقع في احد هزيمة قد سماها القرآن قرحاً لقوله تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ وسماها إصابة وان تسمية ما أصاب المسلمين بأحد هزيمة ليس تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق إنما تكون الهزيمة

اذا كان جيش الإيمان قد فر فراراً، والآخر تبعه في فراره حتى داهم المدينة[١٠٥]، إذن فالأمر كان ابتلاءاً واختباراً للجماعة المؤمنة بأن يلتزموا أمر الله ورسوله دائما وألا تنصرف همتهم أبدا إلى الدنيا وزخرفها وقد وعي المؤمنون الدرس جيدا ، فبعد أحد لم تحدث لهم هزيمة أبدا طيلة عهد رسول الله معهم ، ولذلك يقال ان الدرس الذي يعلم النصر لا يعتبر هزيمة في الغالب[١٠٦].

تاسعا: ان الابتلاء هو طريق للنصر وما العلاقة بين النصر والابتلاء فهي من الحقائق القرآنية الثابتة انه لا نصر دون ابتلاء، ولا تمكين بلا ابتلاء ومن يقف على حركة التاريخ ويتقوى حركة الصراع يصل إلى هذه الحقيقة ورب قائل يقول لماذا لا يكون النصر دون ابتلاء ؟ وهل بالضرورة ان نبتلي حتى ننتصر؟ ونجيب ان النصر لابد له من ثمن، والنصر بلا ثمن قد يستهان به ويفرط به، ومن هنا كان الابتلاء ضرورة وثمنا للنصر كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً ، فلو كان النصر هزلاً لقام في كل يوم مدعي، وادعى انه صاحب دعوة ثم يعجز في حملها[١٠٧] وقد سئل احد الصالحين: أيها أفضل للرجل، ان يمكن له أو يبتلي؟ فقال: "لا يمكن الرجل حتى يبتلى، فان الله ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام لما صبروا مكنهم، فلا يظن احد أن يخلص من الألم البتة[١٠٨].

عاشرا : وفي هذا الابتلاء يرى الله تعالى هذه الجماعة بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب، لتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة ، ولتزيد طاعة لله تعالى وتوكلاً عليه: ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين[١٠٩] وان أهمية علم المؤمن بأنه يبتلى دائما بجعله من خوف وحذر من الله ، وهذا يدعوه إلى إحسان العمل والحرص على توافر شروط النصر والبعد عن أسباب الهزيمة من المعصية والعجز والكسل والمخالفة لأمر الطاعة[١١٠]، فجوب طاعة الرسول محمد (ﷺ) في آمره فقد قال للرماة: "لاتبرحوا مكانكم ان نحن نصرنا وقهرنا فعصوا أمره ونزلوا ، حيث كان الواجب عليهم السمع والطاعة وان تكون الإعمال كلها لله غير منظورة فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم

حتى عوقبوا وأصيبوا[١١١] فالسمع والطاعة من مستلزمات النصر ومتطلباته، قد تكفل الإيمان بتحقيق هذ الجانب انه يتصور ان يحصل قتال ونصر دون أوامر قتالية وخططية من القائد إلى جنوده وهذا يستدعي الانصياع لأوامر القيادة ، لذا جعل سبحانه السمع والطاعة علامة على الإيمان دليلا عليه قال تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[١١٢].

أحدى عشر: فهي سنة الله القديمة وهي تفضي بان يظهر أنبياءه والمؤمنين به اذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نياتهم على أعدائهم من الذين كفروا ، فان كمال النصر قائم على حسب ضرورة المؤمنين والتقوى فشرط الله تعالى في تحقيق النصر الإيجاب الصادق والخالص في وقوعه ، لان الإيمان يدعو المؤمن إلى الدفاع والذي في الحق بشكل مطلق ، وهذا بخلاف من يافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شيء في المقاصد الدنيوية فانه بدافع عن نفسه واذا شاهد نفسه مشرفة على هلكة او راكبة مخاطرة تولى منهزماً ، وهذه السنة دائمة لكنها قد تتافر إلى اجل ولأسباب تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم التي حددها الشرع لهم وتتعلق بتهيئة الجو الذي يول فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، ولكن السنة لا تتخلف لأنها مرتبطة بوعد الله الناجز في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[١١٣] أي: أن الإيمان الصادق هو الشرط الأصيل في تحقيق النصر لعباد الله المسلمين تتمثل مظاهر في تقوى الله المقصود بها فعل الأمور وترك المحظور، وبمعنى آخر هي طاعة الله ورسوله وكان الصحابة والتابعون يدركون أهمية التقوى في النصر والغلبة على العدو فكان الخلفاء يوصون جيوشهم بالالتزام بالتقوى لأنها مفتاح النصر وبها يتميز المسلمون ويتغلبون على غيرهم[١١٤] وهذا ما نجده واضحا في وصية عمر بن عبد العزيز وهو يعهد لأحد عماله وقد ورد فيها "إني أمرك ومن معك في الأجناد بتقوى الله على كل حال، فان تقوى الله أفضل القوة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب وأمرك ومن معكم ان تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من

عدوهم وإنما ينظر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لان عدونا ليس كعدوهم ولا عدتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وان لا ننتصر عليهم بفضلنا لهم فغلبهم بقوتنا ، ولا تعملوا بمعاص الله وانتم في سبيل الله، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يتسلط وان أسأنا ، فرب قوم قد سلط عليهم بشر منهم ، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار، وكان وعد الله مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسال الله ذلك لنا ولكم"(١١٥) فعلى هذا يكون النصر والتأييد الإلهي لأهل الإيمان الكامل لقوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾(١١٦) ومن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد ولهذا اذا أصبت العبد بمصيبة في نفسه او ماله او بإدالة عدوه عليه، فليعرف إنما حصل له هذا بسبب ذنوبه إما بترك واجب وفعل محرم ، وإنما تركوه من طاعة الله ورسوله وبهذا يزول الإشكال (١١٧)، وفي هذا روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كنا لا نعرف أن احد منا يريد الدنيا حتى نزلت الآية ، فعلمنا ان فينا من يريد الدنيا ثم صرفكم عنه بالهزيمة من بعد ان أظفركم عليهم ليبتليكم بمعصية الرسول بالقتل والهزيمة .(١١٨)

الخاتمة

بعد هذه الجولة العلمية المباركة في آيات القران الكريم توصلت الى النتائج الاتية :

١ –الأهمية الكبيرة التي أعطاها القران الكريم للابتلاء بالمصائب المتنوعة وتبينت هذه الأهمية في العديدة من الايات التي ورد فيها ذكر لفظ المصيبة من خلال مفردات ليس لها حد وعباراته المتنوعة .

٢– المصيبة هي كل ما يصيب الانسان من مكاره الدنيا من نكبة وضر وسوء وشدة وهذا مفهوم المصيبة من ناحية الدلالة اللغوية لم بخرج عن مضمونه في الاستعمال القراني .

٣ – الابتلاء بالمصائب المتنوعة له اثر كبير على النفس الإنسانية في تحقيق العبودية لله تعالى في السراء والضراء وتربية النفوس واعداها وخلوها من الشوائب وإخلاصها لله تعالى .

٤– علاقة الذنوب بالمصائب علاقة وثيقة سواء كان الإعراض عن منهج الله وعدم إنكار المنكر والظلم وانتشار المعاصي والفواحش والسيئات فانها اسباب مباشرة لها .

الباحث

الهوامش

(١) ينظر: أحاديث أسباب النصر والهزيمة في كتب التسعة، إشراف: ثابت حسين مظلوم (٢٠٠٤م): ٢٦٣-٢٦٥. (أطروحة دكتوراه غير منشورة)

(٢) سورة آل عمران - الآيات: ١٣٩ – ١٤٠.

(٣) ينظر المفردات ، للأصفهاني: ٨٤٢.

(٤) ينظر: القاموس المحيط، للفيروز أبادي: ١٥٠٩، لسان العرب ، لابن منظور: ٦٠٨/١٢، والمعجم الوسيط: ٩٨٥/٢.

(٥) المجمع في اللغة،لأبي الحسن علي بن الحسن المشهور بكراع الهنائي (ت٣١٠هـ) تحقيق: احمد مختار وصاحب عبد الباقي ، عالم الكتب- القاهرة (ط٢، ١٩٨٨م): ٣٥٥.

(٦) ينظر: الهادي إلى لغة العرب (قاموس عربي –غربي) ، لحسن سعيد الكرخي- دار لبنان للطباعة والنشر (١٩٩٢م) : ٤١١/٤.

(٧) ينظر: المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ، لمحمد فؤاد عبد الباقي:٧٣٧.

(٨) سورة البقرة - الآيتان: ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٩) ينظر: النصر والهزيمة كما يصورها القرآن: ١٧٤

(١٠) سورة ص – الآية : ١١ .

(١١) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٣٤/٤، والنصر والهزيمة كما يصورها القرآن: ١٧٥.

(١٢) سورة القمر- الآيتان : ٤٤ – ٤٥ .

(١٣) ينظر:روح المعاني للألوسي ١٠٧/١٥، والنصر والهزيمة كما يصورها القرآن : ١٧٥، النصر والهزيمة (دراسة قرآنية) عبد اللطيف حسن محمد مرشود، أشراف: محسن سميح الخالدي، فلسطين (٢٠٠٧م). (رسالة ماجستير منشورة):٨٩.

(١٤) غزوة أحد وقعت في شوال السنة الثالثة للهجرة، وأُحد اسم الجبل الذي وقعت عنده غزوة أحد ويقع شمال المدينة المنورة على بعد ميلين ، ويسمى أُحد لتوحده وانقطاعه من جبال أخرى هناك. ينظر: معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) دار الفكر، بيروت ، ١٣٣/١ ، والجهاد في الإسلام، لعلي جمعة، نهضة مصر للطباعة والنشر(ط٢ ،٢٠٠٥م): ٥.

(١٥) ينظر: غزوات الرسول ، للصلابي، : ١٠٥.

(١٦) سورة آل عمران – الاية : ١٥٢.

(١٧) ينظر: جامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ٢٣٤/٤، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا: ١٨٢/٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٣٠/٣، وسنن الإلهية ، لمجدي عاشور: ٣٨٣.

(١٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، رقم الحديث ٤٠٤٣: ٩٤/٥.

(١٩) ينظر: فتح الباري بشرح العسقلاني، ٣٤٩/٧.

(٢٠) ينظر : في ظلال القرآن ، ٤٦١/١.

(٢١) ينظر: السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم ضياء العمري ، مكتبه العلوم والحكم ، المدينة المنورة (١٩٩٣م) .: ٣٨٢/٢.

(٢٢) ينظر: الرحيق المختوم : ٢٣٩– ٢٤١، ومواهب الرحمن في تفسير القرآن ، لعبد الكريم محمد المدرس ، عُني بنشره محمد علي القره داغي ، دار الحرية للطباعة – بغداد،(١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م): ٢٥١/٤، والمستفاد من القصص ، لعبد الكريم زيدان: ٥٤٦.

(٢٣) ينظر: أسباب النزول ، للواحدي :١٢٩، تفسير القرآن العظيم: ٤١٣/١

(٢٤) سورة آل عمران- الاية : ١٥٢.

(٢٥) ينظر: تصوير الصراع بين الحق والباطل: ٦٢٩–٦٣٠.

(٢٦) سورة آل عمران- جزء من الآية : ١٥٢.

(٢٧) سورة آل عمران- جزء من الآية : ١٥٢.

(٢٨) ينظر: تفسير القرآن العظيم،لابن كثير : ٣٨٩/١، والجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ٢٣٤/٤–٢٣٧، تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا :١٨٣/٤–١٨٤، والسنن الإلهية ، لمجدي عاشور ٣٨٤، ومواهب الرحمن ، للمدرسي: ٢٧٣/٤–٢٧٤.

(٢٩) ينظر: في ظلال القرآن : ٢٤٣٨/٤.

(٣٠) ينظر: مواهب الرحمن ، لعبد الكريم المدرسي: ٢٧٣/٤.

(٣١) ينظر:الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٣٩/٤، وتفسير القرآن العظيم،لابن كثير، ٤١٤/١ ،والتحرير والتنوير، لابن عاشور:١٣١/٣، وتفسير المنار محمد رشيد رضا:١٨٤/٤، ومحاسن التأويل، لقاسمي،٢٥٥/٤، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٢/ ٩٠٢.

(٣٢) سورة آل عمران – الاية : ١٥٣ .

(٣٣) ينظر: النكت والعيون، للماوردي: ٣٤٨، وتفسير القرآن الكريم، لابن كثير: ٥٦٦/٢، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٣١/٣، والأساس في التفسير ٩٠٢/٢.

(٣٤) ينظر:تفسير القرآن العظيم،لابن كثير: ١/ ٤١٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي : ١٨٥.

(٣٥) سورة آل عمران – الآية : ١٥٥ .

(٣٦) معالم التنزيل: ٥٢٥/١.

(٣٧) ينظر: التحرير والتنوير،لابن عاشور ١٢٥/٤.

(٣٨) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي: ٥١/٩، والقرآن العظيم،لابن كثير: ٤١٨/١، وفتح البيان، للقنوجي : ٣٦٠/٢، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا: ١٩٢/٤، ومواهب الرحمن، للمدرسي: ٢٧٨/٤ ،ومحاسن التأويل، للقاسمي :٢٦٩/٤.

(٣٩) سورة آل عمران – الاية : ١٦٦ .

(٤٠) ينظر: تفسير المراغي : ١٢٧/٤، إرشاد العقل السليم، لابي السعود: ١٠٩/٢.

(٤١) ينظر: القرآن العظيم لابن كثير: ٥٨١/٢.

(٤٢) ينظر: النكت والعيون: ٤٣٥/١.

(٤٣) ينظر: معالم التنزيل ، للبغوي: ٥٣٣/١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤٢٥/١ ، وروح البيان، للبروسوي: ٢٩٢/٤.

(٤٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٢٥/١.

(٤٥) في ظلال القرآن ، لسيد قطب : ١٣١٩/١.

(٤٦) ينظر : المصدر نفسه : ١٣١٩/١.

(٤٧) ينظر: السيرة النبوية ،لابن هشام: ٤٤١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٤٠/٤، وتفسير القرآن العظيم ، لابن كثير:٥٧٠/٢ ،، والتحرير والتنوير، لابن كثير: ١٣٢/٣–١٣٣، والأساس في التفسير، سعيد حوى :٩٠٢/٢–٩٠٣ ، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا: ١٨٤/٤.

(٤٨) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٠/٢.

(٤٩) ينظر : تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير:٥٧٠/٢ ، وبحر العلوم، للسمرقندي : ٥٧٠/٢.

(٥٠) ينظر: تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير:٥٧٠/٢.

(٥١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٧٠/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٣٣/٣، والأساس في التفسير، لسعيد حوى: ٩٠٢/٢–٩٠٣.

(٥٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ٢٣٩/٤–٢٤٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤١٤/١،ومحاسن التأويل للقاسمي: ٢٥٥/٤.

(٥٣) سورة آل عمران – الاية : ١٦٥ .

(٥٤) سورة آل عمران – جزء من الاية : ١٦٥ .

(٥٥) سورة آل عمران – جزء من الاية : ١٦٥ .

(٥٦) ينظر: ، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٨١/٢ ، وأسباب النزول، للواحدي :١٣١، وتفسير المراغي، لمصطفى المراغي: ١٢٥/٤، ومواهب الرحمن، للمدرس: ٢٨٤/٤، ومحاسن التأويل، للقاسمي، ٢٨٥/٤، والمستفاد، لعبد الكريم زيدان : ٥٦٦.

(٥٧) ينظر: جامع البيان،للطبري :٣٣١/٧، وتفسير القرآن العظيم،لابن كثير: ٥٨١/٢، وتفسير المراغي، لمصطفى المراغي :١٢٥/٤.

(٥٨) ينظر: أيسر التفاسير، للجزائري:٤٠٦/١.

(٥٩) ينظر: جامع البيان للطبري:٣٧١/٧،والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي:٢٦٥/٤، وتفسير المراغي، لمصطفى المراغي: ١٢٥/٤، ومواهب الرحمن، للمدرس :٢٨٤/٤،.

(٦٠) ينظر: بحر العلوم ، للسمرقندي: ٢٦٤/١.

(٦١) ينظر: تفسير المراغي، لمصطفى المراغي ، ١٢٦/٤، ومحاسن التأويل ، للقاسمي : ٢٨٥/٤.

(٦٢) ينظر: نظرات في كتاب الله، لزينب الغزالي الجبيلي، مراجعة وتدقيق: عبد الحي الغرماوي، درر الشروق للنشر(١٤١٤هـ–١٩٩٤م): ٢٦٣/١.

(٦٣) سورة آل عمران – الاية : ١٦٥.

(٦٤) ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي: ٢٦٣/١ ، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير:٥٨١/٢ ، ومواهب الرحمن ، للمدرسي: ٢٨٥/٤، ومحاسن التأويل، للقاسمي: ٢٨٥/٤، والمستفاد ، لعبد الكريم زيدان: ٥٦٦.

(٦٥) ينظر: النكت والعيون : ٤٣٥/١.

(٦٦) ينظر: السيرة النبوية ،لابن هشام: ٤٤٣–٤٤٤.

(٦٧) ينظر: بحر العلوم ، للسمرقندي ،٢٦٣/١.

(٦٨) سورة الشورى – الاية : ٣٠.

(٦٩) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير:١١٦/٤، ومفاتيح الغيب ، للرازي: ١٧٢/٢، وروح المعاني، للالوسي: ٤٠/٢٥.

(٧٠) سورة آل عمران – الاية : ١٢٥ .

(٧١) ينظر: المستفاد ، لعبد الكريم زيدان: ٥٦٦–٥٦٧.

(٧٢) ينظر: السنن الإلهية : ٢١٢.

(٧٣) سورة آل عمران – الاية ١٦٥.

(٧٤) ينظر: النصر والهزيمة دراسة قرآنية: ٩٨.

(٧٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب : ٥١٤/١.

(٧٦) سورة آل عمران – الاية : ١٥٥.

(٧٧) سورة الشورى – الاية : ٣٠.

(٧٨) ينظر: في ظلال القرآن ، لسيد قطب ٤٩٧/١ ، والنصر والهزيمة دراسة قرآنية: ١٤٠–١٤١.

(٧٩) سورة آل عمران – الاية : ١٦٦.

(٨٠) سورة الحديد – الاية : ٢٢ .

(٨١) ينظر: النصر والهزيمة دراسة قرآنية: ٩٨.

(٨٢) ينظر: التوكل على الله في القرآن، لمعتوقة بنت محمد حسن الحساني، إشراف: عبد الحميد الامين– السعودية (٢٠٠١م): ١٤٩. (رسالة ماجستير منشورة)

(٨٣) سورة آل عمران – الاية : ١٤٤.

(٨٤) ينظر: غزوات الرسول ، للصلابي: ١٣٩–١٤٠.

(٨٥) سورة آل عمران – الاية : ١٥٥.

(٨٦) في ظلال القرآن ، ٤٩٧/١.

(٨٧) ينظر: أسباب انهيار الأمم : ٣٤٧.

(٨٨) ينظر: المستفاد، لعبد الكريم زيدان: ٥٦٢.

(٨٩) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ٤١٣/١.

(٩٠) سورة آل عمران- جزء من الاية : ١٥٢.

(٩١) ينظر: المستفاد ، لعبد الكريم زيدان : ٥٦١.

(٩٢) ينظر المصدر نفسه :٥٦٠-٥٦١.

(٩٣) ينظر: مواهب الرحمن ، للمدرس: ٢٥٢/٤.

(٩٤) ينظر: المستفاد ، لعبد الكريم زيدان ، ٥٦١.

(٩٥) ينظر: حكمة الابتلاء ،لابن القيم الجوزية : ٣٩-٤١.

(٩٦) سورة آل عمران - الايات: ١٣٩ - ١٤٠.

(٩٧) ينظر: في ظلال القرآن : ٢٤٢٦/٤-٢٤٢٧.

(٩٨) ينظر: مقومات النصر في القرآن :٢٦٧/١.

(٩٩) ينظر: العقيدة في الله ، لمحمد متولي الشعراوي ،المكتبة العصرية للنشر ،(د.ت.ط): ٤٨٠.

(١٠٠) ينظر: تفسير الوسيط، للزحيلي: ٢٥٩/١.

(١٠١) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٥٢٤/١-٥٢٥.

(١٠٢) ينظر: زاد المعاد ، لابن القيم : ٢١٩/٣.

(١٠٣) ينظر: المصدر نفسه : ٢٢٣/٣.

(١٠٤) ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، لمصطفى السباعي، المكتب الاسلامي – بيروت(١٩٨٥م): ١١٢.

(١٠٥) ينظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول ، لأبي بدر محمد بن بكر إل عابد : ١-٢ / ١٦١.

(١٠٦) ينظر: غزوات الرسول، للشعراوي :١١٧_١١٨، وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي للنشر- القاهرة،(١٤٢٥ هـ): ٢٢١/٢، غزوات الرسول لابي بدر ال عابد:١-١٦١/٢.

(١٠٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٦/٤.

(١٠٨) الفوائد، ابن القيم الجوزيه: ٢٦٩.

(١٠٩) ينظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب: ٤٨١/١.

(١١٠) ينظر: قواعد الدعوة إلى الله ، لهمام عبد الرحيم سعيد، دار العدوى –عمان(١٩٨٣م) : ٨٠.

(١١١) ينظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد بن عفيفي الباجوري الخضري (ت١٣٤٥ه) خرج أحاديثه: خالد بن محمد عثمان ، مكتبة الصفا– القاهرة (٢٠٠٢م) : ١٠٩.

(١١٢) سورة النور – الاية : ٥١ .

(١١٣) سورة الروم- الاية : ٤٧.

(١١٤) ينظر: السنن الإلهية ، لابن عاشور، ٣٩٦-٣٩٨.

(١١٥) حلية الأولياء،للأصفهاني : ٣٠٢/٥ – ٣٠٣.

(١١٦) سورة غافر- الاية : ٥١ .

(١١٧) ينظر: حكمة الابتلاء، ابن قيم الجوزية : ٢٥-٢٦.

(١١٨) ينظر: بحر العلوم ، للسمرقندي: ٢٥٧/١.